

تمثيلات الألم والمعاناة في الذات الأنثوية حيزية من الموروث الشعري إلى التخيل الروائي

د. شفيقة بن داود*

جامعة أبو القاسم سعد الله - جامعة الجزائر 2 ،

CHAFIKA.BENDAOU@UNIV-alger2.dz

النشر: 2024/12/15

القبول: 2024/12/10

الإرسال: 2024/12/03

الملخص:

يعدّ الروائيّ واسيني الأعرج أحد أهم الأصوات الروائية في الوطن العربي على خلاف الجيل التأسيسي الذي سبقه، إذ نجد أعماله الروائية التي كتبها ويكتبها تنتمي للرواية الجديدة التي لا تستقر على شكل واحد، بل تبحث باستمرار على سبلها التعبيرية المغايرة في العمل الجاد على اللغة. فاللغة عند واسيني الأعرج ليست معطى جاهز، إنّما هي تجديد مستمر في التجريب والابتكار من حيث الاستعمال، فقد تجسدت قدرة الروائي في التجريب والتحديث بشكل واضح خاصة في روايته التي أثارت جدلاً نقدياً كبيراً (حيزيا)، والتي حاور فيها التراث لا من موقع الموروث التاريخي، ولكن من هاجس التخيل الفني المغيب. وبذلك اتخذت الكتابة عند واسيني الأعرج جانب التأصيل من جهة والكتابة الحديثة / المتجددة من جهة أخرى، مما شكل منعطفًا جديدًا ليس على مستوى الأدب الجزائري فقط، إنّما على مستوى الرواية العربية ككل.

الكلمات المفتاحية: الموروث، التخيل، الأنثى، المعاناة، الآخر، التجريب

Representations of Pain and Suffering in the Female Self: Hizia from Poetic Heritage to Fictional Narrative

*المؤلف المرسل.

Abstract: The novelist Wasini Al-A'raj is considered one of the most prominent voices in Arabic literature, distinct from the foundational generation that preceded him. His novels belong to the new novel genre, which does not adhere to a fixed form but continuously seeks innovative expressive paths through serious work on language. For Wasini Al-A'raj, language is not a ready-made entity but rather a continuous process of experimentation and renewal in usage. This creative capability is evident, particularly in his novel Hayziyya, which sparked significant critical debate. In this work, he engages with heritage not from a historical standpoint but through the lens of artistic imagination. Thus, Wasini Al-A'raj's writing balances between rooting in tradition and adopting a modern, innovative style.

Keywords: heritage, imagination, the feminine, suffering, the other, experim.

1. مقدمة: يعدّ الروائي الجزائري واسيني الأعرج من أبرز الروائيين المعاصرين حيث استطاع على امتداد عقود أن يفرض قلمه الروائي على الساحة الأدبية والنقدية معا. فكان حديث الساعة دائما بأعماله المتميزة والقارئ لروايات واسيني الأعرج يدرك حتما أن جل أعماله الأدبية والإبداعية، نالت ضمنها الأنثى حظوة كبيرة، كرواياته سيدة المقام، مملكة الفراشة، حيزيا...

فراح الأعرج يخط تعرجات روحها قبل جسدها ويتحسس بواعث الألم فيها قبل الفرح والغموض قبل الوضوح، وكأنه كرّس إبداعه الفكري كله فقط للاحتفاء بها.

لقد استطاع واسيني الأعرج أن يبتكر لغة أدبية وفنية مغايرة، ترسم ملامح أنثى تختلف كل الاختلاف عما هو سائد في كتابات أدبية وروايات عربية أخرى. إذ نجده يتحدث عن الأنثى في ظل الحب والحرب والحرمان والاضطهاد والصمود والصبر.. بأسلوب تجريبي يمتزج فيه البعد الإنساني والإبداعي معا.

وعليه سنحاول في هذه المداخلة الولوح إلى عالم أديبنا من خلال سبر أغوار قلمه الروائي لنناشد الأنثى في أدبه ، فتبوح لنا بتجربته الروائية وما مدى تبنيه لقضاياها وتقمص ذاتها وآهاتها.

والإشكال الذي يلح علينا هو: ماذا تعني الأنثى لواسيني الأعرج في أعماله الروائية؟ وهل جعله للأنثى العتبة الأساس في أعماله الروائية هي دعوة لإنصافها وتبني قضاياها أم لتحميل نصه الروائي صبغة جمالية فنية لا غير؟.

هل نجح واسيني في عكس أدوار البطولة ، فأخذ مكان الأنا/شهرزاد بدلا من الآخر /شهریار لبني لنا سردا جديدا ورؤية مغايرة ، وليبت فينا عهدا جديدا تكون فيه الأنوثة مقابل الذكورة؟

يرحل بنا الروائي واسيني الأعرج هذه المرة نحو التراث الجزائري لنكتشف معه تلك القصة الملتهبة بالحب والعشق بين حيزيا وسعيد ، والتي ذكرها المدحون في البوادي والصحاري والشعراء في عصرنا هذا وقبله ، فتعددت الروايات والحكايات والنوايا في روايتها. وما كان ليكتب لهذه الأسطورة الخلود لولا الدور الذي قام به الشاعر الشعبي محمد بن قيطون ، حيث نظم قصيدة من الشعر الشعبي تتكون من ألف ومئتي بيت ، رثى فيها وفاة حيزية.

تعد هذه القصيدة فاتحة الفواتح لتخليد لهذه الأسطورة ، ثم تلتها من القصص لكثير من الشعراء الذين ساروا على درب بن قيطون ، ليتلقفها بعد ذلك كل من النقاد والدارسون والأكاديميون بالدراسة والبحث والتحليل ، كالدكتور أحمد الأمين وعبد الحميد بورايو وعز الدين المناصرة وغيرهم..

بينما جدد إحياء هذه الأسطورة الشعبية الروائي واسيني الأعرج الذي أعاد صياغتها وبعث حقائق جديدة تتعلق بموت حيزية ، وحب الشاعر بن قيطون لها واكتشاف الشخصية الوهمية المتمثلة في سعيد ابن عمها ، كل ذلك تم في قالب روائي تشويقي فني.

2.دراسة العتبة النصية للرواية:

1.2 العنوان كحضور أنثوي:

لقد حظي العنوان كعتبة نصية بالاهتمام الكبير لدى النقاد الغربيين والعرب على حد سواء، مما أولى للكتاب والروائيين الاهتمام بهذه العتبة أيّ العنوان، كونه أول ما يسترعي انتباه القارئ لوقوعه على واجهة الغلاف، ودوره في انتقال القارئ من عالم الواقع إلى عالم النص التخيلي. فالعنوان هو "عقد شعري بين الكاتب والكتابة من جهة، وعقد قرائي بينه وبين جمهوره من جهة أخرى"1.

وعليه العنوان لم يعد مجرد اسم يدل على العمل الأدبي، من خلال تحدد هويته وتكرس انتماءه لكاتب ما، بل صار أبعد من ذلك بكثير فهو بمثابة مدخل إلى عمارة النص وإضاءة بارعة وغامضة لمراته المتشابهة. لهذا يأتي الاهتمام بالعنوان موضوع الدراسة من التوجه البلاغي الجديد الذي يسعى إلى كسر هيمنة العنوان الحرفي، ليؤسس بدلا منه عنوانا تلميحيا أيّ دلاليا. فالعنوان سلطة النص وواجهته الإعلامية والتجارية، وهو الجزء الدال منه الذي يساهم في فك شفرات النص. من هنا "عنى المؤلف بعنونه نصوصه لأنه مفتاح إجرائي به تفتتح مغاليق النص سميايا"2، ومع هذا التطور الملحوظ لظاهرة العنونة والاهتمام المتزايد الذي أصبح المؤلف وكذا الناشر يوليه له، لفت انتباهنا بعد تدقيق وتمحيص وتفحص أن غالبية العناوين

الروائية ذات الحساسية الجديدة، اتسمت بصياغة تركيبية موجزة. فالغالبية كانت عبارة عن عناوين قصيرة بدلا من عناوين طويلة وهي الميزة التي تميزت بها عناوين المؤلفات القديمة، فهل الحضور الوظيفي لطول أو قصر العنوان يلعب دور المضلل أو المرشد في الرواية الجديدة؟ وهل يضيء بصيرة القارئ أم يعميها ويشتها؟

لقد استفحل الإيجاز على معظم عناوين الروايات الجديدة، ما عدا بعض الروائيين القلائل الذين استهوتهم العناوين الطويلة، دون أن تقوتهم الإشارة إلى ما للعناوين الفرعية من أهمية قصوى في تلقي العمل الروائي من قبل المتلقي، نذكر منهم الطاهر وطار بعناوينه الطويلة، "العشق والموت في الزمن الحراشي"

"الوالي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي"... وواسيني الأعرج بعناوينه الازدواجية (العنوان الأساسي + العنوان الفرعي) ك"سيدة المقام (مرثيات اليوم الحزين)"، "حارسة الظلال" (دون كيشوت في الجزائر)، "ذاكرة الماء" (محنة الجنون العاري)،.. مثل هذه العناوين الفرعية يستعين بها الكاتب لتمييزها بمقصديّة العناوين الأصلية، فتكون شارحة ومفسرة لها "فما خفي في العنوان الرئيسي وعجز عن التعبير عنه، يعطيه العنوان الفرعي مدى أوسع في مجال

الإيضاح ومجال الفهم...³، لكنه في نفس الوقت قد يثقل حافظة المتلقي الذي يجذب دائما عناوين تتسم بالإيجاز والسهولة لإمكانية الحفظ والتداول ، وهذا ما أشار إليه الروائي واسيني الأعرج في إحدى حواراته قائلا: "حاولت في النصوص الأخيرة تقليص هذه الظاهرة والحد منها لأنني اكتشفت أنها بقدر ما هي مفيدة فهي مربكة ومثقلة للنص ، لأن العنوان جعل أولا ليحفظ فبقدر ما يكون كلمة أو كلمتين يكون ناجحا ويبقى في الذاكرة"⁴.

بيد أنه في الآونة الأخيرة نجده يتراجع عن مقولته ، ويركض سعيا وراء العناوين المزدوجة وحتى الثلاثية الطويلة ، ليعمق الصلة بين القارئ والعمل الروائي من أجل تحقيق التشويق والانجذاب للعناوين رواياته ، نذكر من هذه العناوين الروائية الطويلة ، "مي ، ليالي إزيس كوبيا ، ثلاثمئة ليلة في جحيم العصفورية"⁵، وكذا روايته الأخيرة "حيزيا ، زفرة الغزالة الذبيحة ، كما روتها لالة ميرا"⁶.

لقد عمد الروائي واسيني الأعرج في كثير من رواياته إلى عناوين أنثوية ، إما نجده يرتبط بإحدى الشخصيات الأنثوية البطلة كما هو الحال في رواياته "أصابع لوليتا " ، "سيدة المقام" ، "أنثى السراب" ، "ملكة الفراشة" .. فمثل هذه العناوين المؤنثة تمتاز بالكشف الدلالي ، والتوظيف الرمزي في عنونها للفظ المؤنث مما يثير قدرا كبيرا من أثر التشويق والابتعاد عن التقريرية قصد "الارتقاء بالنسق الفني الذي يفتح على مسارات الجمالية ، فضلا عن إعادة التوتر الفني للشكل البنائي في النص"⁷.

كما قد يصرح العنوان بهذا الوجود الانثوي ، وذلك بتوظيف الاسم المؤنث الصريح على العمل الروائي ، فيكون علامة أيقونية كما هو الحال في روايته "حيزيا" هذا العنوان الجنوني والمشوق ، اختاره الروائي ليحرك رغبتنا في تقصي المزيد عن هذه الشخصية الأسطورية التراثية ، والتي نحن بصدد دراسة حيثياتها. فقد ورد العنوان طويل وثلاثي مما زاده غموضا وتساءل وحيرة "حيزيا زفرة الغزالة الذبيحة كما روتها لالة ميرا " ، هذا العنوان المشحون بالغموض والتداخل ولد فينا فضولا لا حصر له .

قد تختلف العناوين من نص سردي إلى آخر ، كلما استهدفت الرواية نمطا معينا من الرؤى الفكرية والتاريخية والتراثية ، فضلا عن "التصورات التي توحى بتوافقها مع الغاية المنشودة لدى المرسل /القاص وتشاكل مع النسق المعرفي المكون للبنية الفنية في العمل الأدبي وهي تهايز جنسيا بين الذكورة والأنوثة"⁸.

وكان مسألة العنوان تنطوي على مضمونات ذات طبيعة جنسية -جندرية- تتغير النظرة إليها كلما تعلق الأمر ب تاء الخجل ، فيتم استقبالها بنوع من الفتور والاستلاب الذكوري. غير أن هذا المفهوم قد تم انزياحه من قبل الروائي واسيني الأعرج ، إذ نجده يستعمل الذات الأنثوية في ثلاث عناوين متتالية وهي :

حيزيا(1)

-زفرة الغزالة الذبيحة.....(2)

-كما روتها لالة ميرا.....(3)

من هذا التقسيم للعنوان نتبين أن "حيزيا" ، هي أسطورة الحب الخالدة في الموروث الشعبي الجزائري ، بينما "الغزالة الذبيحة" هي أسطورة الأنثى الشاردة الضحية ، أما "لالة ميرا" فهي المرأة الغامضة والساردة للذاكرة المنسية وخباياها وأسرارها في المتن الروائي.

3.حيزيا أسطورة الحب الخالدة:

1.3 قصة حيزية بين التراث والتخيل الروائي :

حيزيا اسم أنثوي ارتبط بالأدب الشعبي الجزائري وخاصة بالشعر حيث خلدتها القصيدة التي خطها الشاعر محمد بن قيطون ، وهو واحد من فحول شعراء عصره ، فكتب فيها قصيدة غزلية عذرية خلدت حب ابن عمها سعيد لها وكلا البطلان أي الشاعر وسعيد ينتسبان " لقبيلة الذواودة أحد بطون رياح من بني هلال. وقد اشتهرت هذه القبيلة بكثرة شعرائها لذلك فهم يقدرون الشعر وفنونه ، ويعرفون قيمته وأثره في النفوس"9.

حيزيا هي بنت أحمد بن الباي أحد أعيان شيوخ قبيلة الذواودة. أما سعيد فهو ابن عمها ، مات أباه منذ الطفولة فكفله عمه أحمد بن الباي ، فترى مع حيزيا وترى معها الحب منذ الطفولة ، وعندما كبر سعيد وشبَّ أصبح والد حيزيا يحذر منه في علاقته مع بناته ، وخصوصا في سن الشباب ، وكانت العادات والتقاليد تقضي بذلك.

كانت الأسرة على عاداتها تقضي جل حياتها في البادية للمحافظة على مراعيها. مما جعل "العشيقين يفضلان البادية على القرية لأن البيئة البدوية والحياة في الخيمة وما حولها تمكنهما من اللقاء أكثر"10. باعتبار المرأة القروية في مثل هذه القرى تكون مقيدة بين أربعة جدران ، بينما المرأة البدوية تتحرك بحرية أكثر خارج الخيمة لأسباب كثيرة منها "أن المرأة في

مثل هذه البيئة تشارك في الحياة الاقتصادية ، فهي التي تستقبل المواشي بعد عودتها من المرعى مساءً وهي التي تحلبها ، والمرأة أيضا تجلب الخشب لإشعال النار أمام الخيمة وتجلب الماء إن كان قريباً..."11.

حيزيا كانت فتاة متميزة عن باقي فتيات قبيلتها. فقد أولى والدها عناية خاصة في تعليمها ركوب الخيل بالإضافة إلى العلوم الأخرى ، لتجمع بين الفروسية والتعلم. إذ خاطب سعيد حيزيا مظهرها سروره من تعلم حبيبته قائلاً: "فرحتي لها قلت لي سيدي امحمد سيعلمك التاريخ والشعر والجغرافيا حتى نعرف المكان الذي نقيم فيه.."12.

وعليه كان خروج حيزيا من الخيمة والتنقل بحرية يعود إلى تساهل والدها معها ظاهراً وبيناً ، وهذا ما ذكره لنا الروائي في لحظة اللقاء بين حيزيا وسعيد.

" — حيزيا أنا سعيد أننا أخيراً معا ، يا ريت يذهب عمي أحمد والدك كل يوم إلى بسكرة ويخلينا معا. ..

ههه ، استغل الفرصة ، لو يعود لا أعتقد أنه سيقبل بهذا المنظر ، ههه هو متسامح شوي لكنه لا يقبل بهذه الخلوة.."13.

إن قصة حيزيا وسعيد تذكرنا بقصص الشعراء العذريين اللذين ظهروا في بادية الحجاز أيام الخلافة الأموية كقصة مجنون (ليلي) وجميل (بثينة) ، وقيس (ليلي).. وتحضرني قصة أول لقاء تم بين جميل وبثينة والذي لا يختلف كثيراً عن لقاء سعيد وحيزيا في السرد الروائي لواسيني الأعرج ، وكأن المشهد يعيد تفاصيله بعد ربح من الزمن ، فلهفة اللقاء واحدة والشوق واحد. وهو المشهد نفسه الذي ذكره أيضاً بن قيطون في قصيدته المشهورة حيزيا حينها صور دفء العاشقين.

- جميل بثينة: وأول ما قاد المودة بيننا بوادي بغيض يا بثين سباب

فقلنا لها قولاً فجاءت بمثله لكل كلام "يا بثين" جواب14.

بينما يصف محمد بن قيطون ذلك الزمن الجميل والحميم بين العاشقين قائلاً:

يا حسراه على قبيل كنا في تاويل

كنوار العطيل شاو النقصية15.

أما الروائي واسيني الأعرج فصور لنا لقاء العاشقين سردا في متنه الروائي معتمدا على تلك الصور التأملية بينهم:

"كان سعيد جالسا قبالتها، يتأمل وجهها الطفولي الذي لم يكبر إلا قليلا مع أنه كلما عاد في فترات العطلة شعر بها تغيرت... عندما نظرت إليه رأت غزالة هاربة، بدت لها قريبة منها مثل أنفاسها.

-ما مللت مني ومن طفولتي ومن غضبي الذي لا معنى له أحيانا؟" (الأعرج، 2023).

3.2 مسارات القصة والنهاية المأساوية:

لقد تطورت العلاقة بين سعيد وحيزيا لتنتهي نهاية مأساوية بموت المعشوقة حيزيا بعد وضعها مولدتها، وهذا بعد قتلها من قبل خطابها من قبيلة آل بن قانة الذين رفضوا هذا الزواج، وهذا الصلح بين العائلتين العدوتين سابقا، عائلة بوعكاز وعائلة بن قانة، ومع هذه النهاية المأساوية التي رواها الروائي واسيني الأعرج بعد بحث مضني بين دفتي التاريخ والرواية الشفهية نجد الكثير من النقاد يرفضونها لأنه سبقتها روايات أخرى عن موت حيزيا تم تداولها في الأعمال الأدبية والفنية، ومن بين هذه الروايات رواية زواجها رغما عنها من رجل من أعيان المدينة يدعى "ناجي"، إلا أن حيزيا ليلة زفافها رفضته وأخبرته بحبها لابن عمها سعيد. "فطلقها وأعادها لأهلها، ثم تزوجت سعيد لترحل معه إلى التل أي الشرق الجزائري على عادة سكان الصحراء وبعد قضاء الصيف في الشرق تموت في الطريق في أثناء عودتها إلى الصحراء"¹⁷.

غير أن الأكاديمي أحمد الأمين يؤكد أن الزواج لم يتم بدليل ما جاء في القصيدة على أن "سعيد كان عشيقا وليس زوجا والشاعر على لسان سعيد يسميها أختي عوض ابنة عمي والزوجة لا تسمى أختا"¹⁸.

ما كان لهذه القصة الشعبية أن يكتب لها الخلود، لولا الدور الذي قام به الشاعر الشعبي محمد بن قيطون والذي نظم قصيدة من الشعر الشعبي يرثي فيها وفاة حيزيا وحرقة قلب سعيد على فراقها. والذي طلب منه هذا الأخير أن يرثيها تخليدا لذكراها. "بقصيدة رباعية الشكل ويطلق الشعراء والرواة على هذا النوع من الشعر الموزون ب" المربع، " لأن كل مقطع من القصيدة يحتوي أربعة أشطر قصيرة"¹⁹.

4. زفرة الغزالة الذبيحة:

1.4. الأنوثة في سراديب الحقيقة المغيبة:

العنوان الثاني الذي نتطلع إليه بعد العنوان الرئيس "حيزيا" هو "زفرة الغزالة الذبيحة"، والغزالة عند العرب والبدو هي المرأة الجميلة صاحبة الكمال، إلا أن صفة الذبيحة جاءت لتدل على مدي معاناة هذه الأخيرة، ولفظة زفرة وطّنت أكثر هذه المعاناة، فلفظة زفرة تدل على الحزن واللهم والظلم الذي تعرضت له هذه الغزالة كونها ذبيحة أي ضحية، في مجتمع ظالم بعاداته وتقاليده القاسية والذي جعلها تدفع ثمن حبها للآخر /حبيبها الذي هو في حقيقة الأمر زوجها في غفلة من المجتمع. لقد ظلمتها القبيلة حينما اتهمتها بحملها بدون زواج من رجل غريب "يقولون إن الأم المرضعة كانت في الأصل أجمل بنات القبيلة ظلمتها القبيلة بعد أن اتهمتها بالحمل من غريب أصيبت به، تفادته العديد من المرات لكنه ظل مثبتا عينيه وكل حواسه فيها حتى ارتمت بين ذراعيه"20.

لكن عقابها كان وخيما وقاسيا، "لأن الشرف أغلى من الحياة، وإذا فقد الشرف وجب طمس العار بالموت" (بن داود، 2018)، لاستحالة تقبل المرأة المسلوقة الشرف في مجتمع تقليدي تحكمه الفحولة بجبروتها وقوة إذلالها وقهرها للأنوثة جسديا ونفسيا واجتماعيا، مستعينة في ذلك بالحجة من العقيدة ومن الأعراف. إن شرف الغزالة هو شرف العائلة ومنه شرف القبيلة، وعليه أقاموا الحد على حبيبها /زوجها مالك "ربطوا يديه وراء ظهره، لم يقاوم...ثم علقوه على شجرة ميتة، ولم يتركوا له حتى فرصة الكلام وإقرار الحقيقة"21(الأعرج، 2023)،

طبعا حقيقة زواجه من الغزالة الذبيحة "كان يريد أن يقول لهم فقط أنه تزوجها عند فقيه الجامع الذي أكد ما قاله مالك قبل أن يصمت"22.

ثم جاء دور الغزالة في القصص حيث اقتادوها لرجمها أمام الجميع، وتحقيق العدالة في نظرهم بغسل الشرف الذي لوّثته، بل ودنسته في نظر قبيلتها ف "ربطوها إلى نخلة ووضعوا عليها عسаса في انتظار تطبيق الحد...ربطوها هناك سبعة أيام.. لم تكن تأكل وفي اليوم السابع يوم قرار قتلها كانت تتألم للولادة"23.

إن الذات الأنثوية المتمثلة في صورة الغزالة تجابه في المتن الروائي خطاب اجتماعي تتحكم فيه الأعراف والعادات والتقاليد كونها "زانية"، دون معرفة الحقيقة وهي حقيقة زواجها. لكن الغضب أعمى كل أفراد القبيلة، فإذ بهذه الزانية /البريئة تتحول في لمح البصر

إلى غزالة تريد أن ترضع وليدها "وكان غفوة ما أصابتهم عندما فتحوا أعينهم لم يجدوا إلا غزالة وهي تحاول أن ترضع وليدها" 24.

لقد امتزج الخيال بالحقيقة ، فخلق لنا السارد أسطورة لها أبعادها التخيلية ، بغية حماية الغزالة من القصاص ، ووضعها في مصاف المقدسات من خلال تخليدها وإعطاء وليدها فرصة للنجاة من مصير محتوم هو الموت ، لكن الحد رغم ذلك طالها. ماتت الغزالة بالسكين البوسعادي ونجت المولودة ، لكن "حمل رجل وجهه المكفهر المظلم سكينه البوسعادي الطويل :الزانية تتحایل علينا بفعل السحر...أسكن في صدرها القطعة المعدنية الحادة.. 25" ، فكانت نهايتها لكن وليدها عاش بفضل محسن استطاع الدفاع عنه واحاطته بالرعاية والمحبة.

5- تداعيات الذاكرة بين الحقيقة والتخييل:

1.5 لالة ميرا تبوح بالذاكرة المغيبة:

تعد لالة ميرا في الرواية امرأة غامضة ، صعبة الطباع ، تحب العزلة والوحدة فقد استوطنت ضريح سيدي خالد كمقر لها. حيث يؤم الضريح الناس من كل فج لزيارة النبي خالد بن سنان العبيسي * ، وطلب بركاته وكرماته.

وعليه تنتشر ظاهرة التعلق بالأولياء الصالحين واللجوء إليهم لاستجلاب الخير ودرء الشر عند جمهور الناس ، حيث يغم العجز وقلة الحيلة ، والمرأة المقهورة اجتماعيا ، نفسيا.. تحتاج إلى حماية هذا الوالي الصالح ليكون سندا لها في الحياة وصروفها ، وهذا ما عملت به لالة ميرا ، نظرا لشدة احساسها بالعزلة والتهميش والدونية. فالوالي كان الملاذ والحامي لأسرار ذاكرة لالة ميرا ، هذه الذاكرة التي احتفظت بسر حيزها لسنوات طويلة ، مستعينة بالوالي سيدي خالد الذي جعل من خدمتها له بإخلاص هالة من قداسة ميزتها عن غيرها ، كالكرامات والخوارق.

"لا تهتم المغرب مقدس لأن الملائكة تودع فيه الخلائق الطيبين قبل أن يغادروا الأمكنة والبيوت ، وهي تريد أن تكون حاضرة عندما يمرّون عليها ويضعون في صدرها السكينة والطمأنينة للنوم. هي مؤمنة بذلك" 26.

إن خدمة لالة ميرا بإخلاص لهذا الوالي الصالح أكسبها كرامات ، "فالوالي هو ولي الله ، ومن خلال التقرب منه تتحقق الحاجات وتعم الرحمة الإلهية ، وتسقط على الوالي قدرات خارقة لها

علامات هي الكرامات التي تميزه عن سائر البشر "27 (حجازي ، 2025). هذه الكرامات انتقلت إلى لالة ميرا وأصبحت جزء منها. تقول لالة ميرا معلنة عن كراماتها: "الكثير من الأمكنة نزورها دون أن نراها بالعين المجردة. يمكنني اليوم أن أحكي لك عن مكة المكرمة ، وعن كنيس بيت لحم ، دون أن أراها. حتى كنائس وهران الكبيرة زرتة قبل أن يتحول إلى مسجد سالم"28.

فلالة ميرا تعتقد في هذا الولي كل الاعتقاد بأن به قوى أعظم ، وأقوى من الرجل أو الزوج أو العرف الاجتماعي الذي يدحضها ويقيهرها ، وأنه قادر على مساعدتها بإلحاق الغضب والنقمة على هؤلاء الذين ظلموها وأجحفوا في حقها وحق حيزيا ، فالولي له كراماته ، ومن بين هذه الكرامات الاطلاع على الغيب الذي اصطفاه بها ، فأصبحت لها هذه القدرة ، كمكافأة على إخلاصها في خدمته.

لقد باحت لالة ميرا لخالد على السر الذي كان يبحث عنه لكتابة أوبيرا تخلد أسطورة حيزيا ، هذه الأسطورة التي اختلف في روايتها ومعرفة خباياها الكثيرين ، وأول سر باحت به لالة ميرا هو مقتل حيزيا بعدما تنازل عنها أهلها وفرطوا فيها قائلة: "حيزيا كانت فرحة ومحنة آل بوعكاز والذواودة. أول من باعها واسترخص روحها ليس الأعداء ولكن أهلها وقبيلتها"29

فحيزيا لم تكن صبية عادية ، إنما تميزت بالفروسية والعلم. رغم أن والدها كما روى عنه أنه لا يرحم مثل أفراد القبيلة الذين "عرفوا بالشدة والقساوة المجتمع القبلي لا يرحم ، وأحمد الباي هو الآخر لا يرحم (...). فقد عرف هذا الرجل بجبروته وشجاعته وكبرائه خصوصاً إذا تعلق الأمر بشرف العائلة "30 الذي هو شرف كل القبيلة.

لكن رغم قساوته وشدته ، علمها الفروسية وركوب الخيل وهي ميزة تعرف عند الرجال أكثر من النساء في قبيلة ذواودة. إلا أن أحمد بن الباي استطاع أن يجعل من حيزيا فارسة لا يشق لها غبار. "لهذا كلما حضرت عرساً بينت قدرتها على امتطاء الأحصنة ، كيف تميل مع البقع ، كيف تلعب بالفردية وترميها في السماء والحصان يركض بأقصى سرعة ممكنة...الرجال بشلاغهم لم يكونوا قادرين على فعل ذلك "31.

بالإضافة إلى جمالها ودلالها الذي ولد الغيرة في قلوب العذارى. حيث كنّ يظهرن لها الحب ولكم الغيرة كانت عنوانهن ، فقد عملن على تشويه جمال حيزيا وتحويله إلى قبح "دائماً

الغيرة تعمي الأبصار ، فقد كانت حيزيا عكس ذلك تماما ، وكانت تعرف كيف تفكرن فيها ودرجة الغيرة التي أعمتهن"32.

من هنا نجد بن قيطون في قصيدته رسم لنا جمال حيزيا وذلك بربط حسننها ببعض المقدسات ، "وهي أوصاف ورثها شعراؤنا الشعبيون عن شعراء ما قبل الإسلام ، وهؤلاء الشعراء كانوا يرسمون تماثيلهم تاركين الوجه دون ملامح ، إذ يربطونه بالشمس والقمر أو النجم الساطع"33 ، لتكون صورة حيزيا صورة مثالية وواحدة ، يتم تداولها بين الشعراء وهذا لما تحمله من صفات مقدسة كالخصوبة عند المرأة...وها هو بن قيطون يرسم لنا ملامح الحسن عند حيزيا منشدا:34

طلقت ممشوط طاح 1 - بروايح كفاح 2 - حاجب فوق اللماح 3

نونين برة 4

خدك ورد الصباح — وقرنفل وضاح - الدم عليه ساح

مثل الضواية 5

صدرك مثل الرخام — فيه اثنين توم - من تفاح السقام

مسوه يدي.

كما يصفها لنا السارد /واسيني الأعرج على لسان سعيد قائلا: "كان سعيد جالسا قبالتها يتأمل وجهها الطفولي الذي لم يكبر إلا قليلا مع أنه كلما عاد في فترات العطلة شعر بها تغيرت ، هذه المرة رأى نهديها كيف تكورا وأصبح يظهران من تحت اللباس وعندما رآها تغسل وجهها رفعت لباسها قليلا فوق ساقها. ..كانا ساقاها أبيضان لأنهما لم يريا الشمس"35.

لكن هذا الحب الملهب جعل حيزيا تقع في المحذور مع سعيد ، وبذلك ترتكب الخطيئة باسم الحب. "ابتسمت ثم أحت رأسها على كتفه ، فانسدل شعرها موجات في مغيب نحاسي اللون ، أغمضت عينها ثم تمادت فيه شلالا من نور تحت وقع رنات خلاخيلها المتلاحقة في لحظات الشهوة المحمومة"36 ، لتنجب فيما بعد طفلة جميلة الطلعة دون علم سعيد في الخفاء ، بعدما رحل سعيد إلى أخواله وأصبح موظفا لدى المكاتب الفرنسية. وبعد أن قرر أحمد بن الباي تزويج حيزيا من عبد الغاني أحد أعيان قبيلة آل بن قانة كصفقة صلح بين القبيلتين.

أنجبت حيزيا طفلة جميلة كجمال أمها ، سماتها على اسم جدتها " تماالا " ، حتى أن أحمد بن الباي بارك الطفلة واسمها دون أن يعلم أنها حفيدته ،

" - كيف تحسين نفسك الآن ؟

- بخير يا يما وخالتي .

- أبوك باركك . وأعجبه الاسم الذي اعطيته لابنتك تماالا .

برقت عينها فرحا . "37.

لقد كانت حيزيا أم حنونة على طفلتها ، وقد جسد ذلك الروائي على لسان الساردين :

" - أصبري ، هي اللي ولدتك تنظف تماالا وتجييها لك . وأنت ارتاحي قليلا .

-أشتهي أن أرضعها . أن أشعر بالأمومة ولو مرة وبعدها أموت "38. لقد أحسنت حيزيا لابنتها تماالا حتى في اختيار اسم خفيف يتم تداوله بين الناس ، حبا في طفلتها فاخترت لها اسم اميرة وتخفيفا للاسم ميرا .

" - ها هي تماالا .

لا لا تماالا اسم ثقيل هي أميرة . نسميها ميرا لن تقبل إلا بربة أميرا ميرا "39، إنها الأمومة التي كانت تحس بها حيزيا اتجاه ابنتها التي تعي جيدا أنها ستحرم منها مستقبلا بعدما عزم أحمد بليلي تزويجها ومنه رحيلها بعيدا .

لكن حيزيا غدر بها يوم زفافها من قبل أهل آل بن قانة بعدما تسببوا في وضع السم لها سم العقرب السوداء " حيزيا ماتت . ..حيزيا ماتت .. انقلب العرس إلى عويل جماعي سممها أولاد الحرام قتلتها نساء بن قانة كأس الوفاء به سم عقرب سوداء "40

لقد دفنت حيزيا في موكب جنازي مهيب حضرته نساء القبيلة وجمع من رجالها ، وكان من بينهم بن قيطون الذي وقف على قبرها منشدا آهاته وألمه من فراق حبيبته . حسب رواية السارد " وقف ابن قيطون عند القبر . مدها باتجاهه الحفار ومساعدته . ضمها إلى صدره ، كان شيء يتسع في قلبه ويشده أكثر نحوها...شعر بالكلمات تتسابق في أعماقه الواحدة تلو الأخرى "41، وبدأ في رثاء حيزيا بأبيات من الشعر الشعبي أبكت سامعيه وأحيت حيزيا حيث أصبحت أسطورة يتم تداولها منذ ذلك الحين :

ضميت أختي لصدي -ماتت في حجري- دمة بصري

على حدودي بحرية

حطوها في نعاش -مطبوعة الاخراس - راني وليت باص

واش اللي بيّ

يا حفار القبور -سايس ريم البور- ما تطيحش الصخور

على حيزية 42

لقد ماتت حيزيا وتم تخليدها من قبل الشاعر بن قيطون ومن ساروا على مساره تاركين لنا كما قال أحمد الأمين "هذا التراث الثمين قد صار في عداد التاريخ بعد أن لعب دوره في وقته وضاع الكثير منه في محيط النسيان" 43 وعليه وجب إحياءه من جديد فنيا وتقدياً.

5. خاتمة:

- تعد رواية حيزية رائعة من روائع الروائي واسيني الأعرج الذي عمل على بعثها من جديد في ثوب مغاير تماماً للأثواب التي سبقتها ، وهنا يكمن الإبداع السردى والتخيلى عند الروائى.

- الأساطير ذات الصبغة المحلية قد تدخل في نطاق ما يسمى بالفولكلور

الشعبى وحيزية تمثل شخصية من شخصيات هذا الفولكلور ، وهذا ما دفع الأدباء للتركيز عليها ، "فهم ينظرون إلى الأسطورة كموروث يهيم مادة لمواضيع يمكن الاشتغال بها" 44

- اتجهت الكتابات الروائية المعاصرة اتجاهها حسنا صوب إحياء التراث ، فقد عملت على إلباس التراث ثوبا جديدا ، وسعت لنشر هذا الأخير على نطاق واسع وبطرق فنية شتى كالرواية ، القصة ، الرحلة ، الشعر... والروائي واسيني الأعرج واحد من هؤلاء الذين كان اهتمامهم بالتراث واضحا في أعماله الأدبية سواء من باب الأمثال الشعبية أو المقولات أو الحكايات الفولكلورية أو الشخصيات كشخصية الجازية وحيزية.

6. قائمة المراجع:

- أحمد الأمين ، صوّر مشرقة من الشعر الشعبي الجزائري ، محمد بن قيطون ، الشيخ السماتي ، القاضي عبد الله بن كريو ، دراسات ونماذج ، دار الحكمة ، الجزائر ، 2007.
- باسمة درمش ، عتبات النص ، مجلة علامات ، مج 16 ، ج 61 ، 2007 ، (الصفحات 50-60).
- جميل الحمداوي ، السيميوطيقا والعنونة ، عالم الفكر ، الكويت ، مج 25 ، ع 3 ، 1997م ، (الصفحة 107)
- جميل بن معمر ، ديوان جميل بثينة ، دار الصادر ، بيروت ، لبنان ، 2009م.
- عبد الحق بلعابد ، "عتبات " (جيرار جينت من النص إلى المناص) ، تقديم :د سعيد يقطين الدار العربية للعلوم ناشرون ومنشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط 1 ، 1998م.
- عبد النور إدريس ، الرواية النسائية والواقع ، بين سوسولوجيا الأدب ونظرية التلقي مطبعة وراقعة سجلهاسة مكناس ، المغرب ، ط 1 ، 2005م.
- شفيقة بن داود ، الخطاب النسائي في الأدب الروائي الجزائري ، أطروحة دكتوراه علوم ، جامعة الجزائر 2 ، 2018 ، (الصفحة 196).
- العربي دحو ، الشعر الشعبي ودوره في الثورة التحريرية الكبرى (منطقة الأوراس) ، الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، ج 1 ، 1998م..
- مصطفى حجازي ، التخلف الاجتماعي ، مدخل إلى سيكولوجيا الانسان المقهور ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء المغرب ، ط 9 ، 2005م
- واسيني الأعرج مع دون كيشوط الرواية الجزائرية ، حاوهر كمال الرياحي ، عمان ، ع 96 ، حزيران 2003م.
- واسيني الاعرج ، مي إزيس كويبا ، ثلاثمئة ليلة في جحيم العصفورية ، موفم للنشر ، الجزائر ، ط 1 ، 2017م..

-واسيني الأعرج، حيزيا، زفرة الغزالة الذبيحة كما روتها لالة ميرا، دار خيال للنشر والتوزيع، 2023.

7. الهوامش:

*كان أحمد أمين السباق بالدراسة للأسطورة حيزية من خلال جمعه للقصيدة وتضمينها كتابه (صُور مشرقة من الشعر الشعبي الجزائري).

1-عبد الحق بلعابد، "عتبات" (جزار جينت من النص إلى المناص)، تقديم: د سعيد يقطين، ط1، الجزائر، لبنان، الدار العربية للعلوم ناشرون ومنشورات الاختلاف، 1998م، ص71

2-جميل الحمدواي، السيميوطيقا والعنونة، عالم الفكر، الكويت، مج 25، ع3، 1997م، ص107.

3-واسيني الأعرج مع دون كيشوط الرواية الجزائرية، حواره كمال الرياحي، عمان، ع 96، حزيران 2003م، ص21.

4-عبد النور إدريس، الرواية النسائية والواقع، بين سوسيولوجيا الأدب ونظرية التلقي، ط1، المغرب، مطبعة وراقعة سجللماسة مكناس، 2005م، ص53

5-واسيني الأعرج، مي إزييس كوييا، ثلاثمئة ليلة في جحيم العصفورية، ط1، الجزائر، موفم للنشر، 2017م.

6-واسيني الأعرج، حيزيا، زفرة الغزالة الذبيحة كما روتها لالة ميرا، دار خيال للنشر والتوزيع، 2023م.

7-باسمة درمش، عتبات النص، مجلة علامات، مج 16، ج 61، 2007م، ص50

8-المرجع نفسه، ص61.

9-أحمد الأمين، صُور مشرقة من الشعر الشعبي الجزائري، محمد بن قيطون، الشيخ السماتي، القاضي عبد الله بن كريو، دراسات ونماذج، الجزائر، دار الحكمة، 2007، ص19.

10-المرجع نفسه، ص20.

11-أحمد الأمين، صور مشرقة من الشعر الشعبي الجزائري، ص20.

12-واسيني الأعرج، حيزيا زفرة الغزالة الذبيحة كما روتها لالة ميرا، ص180

13-المصدر نفسه، ص181.

14-جميل بن معمر، ديوان جميل بثينة، بيروت، لبنان، دار الصادر، 2009م، ص6.

15-أحمد الأمين، صُور مشرقة من الشعر الجزائري، ص48.

16-ينظر العربي دحو، الشعر الشعبي ودوره في الثورة التحريرية الكبرى (منطقة الأوراس)، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ج1، 1998م، ص49.

17-أحمد الأمين، صور مشرقة من الشعر الشعبي الجزائري، ص21.

18-المرجع نفسه، ص39.

19-واسيني الأعرج، حيزيا زفرة الغزالة الذبيحة كما روتها لالة ميرا، ص12.

20-شفيفة بن داود، الخطاب النسائي في الأدب الروائي الجزائري، أطروحة دكتوراه علوم، جامعة الجزائر 2، 2018، ص196

21-واسيني الأعرج، حيزيا زفرة الغزالة الذبيحة كما روتها لالة ميرا، ص13

22-المصدر نفسه، ص13

23-المصدر نفسه، ص13

- 24-المصدر نفسه ، ص 14.
- 25-المصدر نفسه ، ص 14.
- *خالد بن سنان العبسي قيل أنه نبي من أنبياء الله الصالحين ، ضيعه قومه لجهالتهم ، كما قيل أنه والي من أولياء الله الصالحين الذين وهبهم الله الكرامات والقدسية ، يوجد ضريحه في سيدي خالد بولاد جلال ببسكرة.
- 26-واسيني الأعرج ، حيزيا زفرة الغزالة الذبيحة كما روتها لالة ميرا ، ص 59.
- 27-مصطفى حجازي ، التخلف الاجتماعي ، مدخل إلى سيكولوجيا الانسان المقهور ، ط 9 ، الدر البيضاء ، المغرب المركز الثقافي العربي ، 2005م ، ص 143.
- 28-واسيني الأعرج ، حيزيا زفرة الغزالة الذبيحة كما روتها لالة ميرا ، ص 59.
- 29-المصدر نفسه ، ص 170.
- 30-أحمد الأمين ، صور مشرقة من الأدب الشعبي الجزائري ، ص 24.
- 31-واسيني الأعرج ، حيزيا زفرة الغزالة الذبيحة كما روتها لالة ميرا ، ص ص 171 ، 172
- 32 -المصدر نفسه ، ص 171
- 33-أحمد الأمين ، صور مشرقة من الأدب الشعبي الجزائري ، ص 28
- 34-المرجع نفسه ، ص ص 50 ، 51.
- *طاح1: (أطلقت شعرها على متنها) ، كفاح2(العطر) ، اللهاج3: (العيون) ، نونين4: (أغلب الشعراء الشعبيين يشبهون الحاجب بحرف النون) ، الضواية 5: (النجمة).
- 35-واسيني الأعرج ، حيزيا زفرة الغزالة الذبيحة كما روتها لالة ميرا ، ص 184
- 36 -المصدر نفسه ، ص 196.
- 37-المصدر نفسه ، ص 296.
- 38-المصدر نفسه ، ص 298.
- 39-واسيني الأعرج ، حيزيا زفرة الغزالة الذبيحة كما روتها لالة ميرا ، ص 299
- 40-المصدر نفسه ، ص ص 212 ، 213
- 41-المصدر نفسه ، ص 315
- 42-أحمد الأمين ، صور مشرقة من الشعر الشعبي الجزائري ، ص ص 57 ، 58 ، 59 ، 43-المرجع نفسه ، ص 46.
- 44-جعفر يابوش ، الأدب الجزائري ، التجربة والتاريخ ، دراسة في الأنماط والتمثيلات ، النشر الجامعي الجديد ، تلمسان ، الجزائر ، 2017 ، ص 48.